مظاهر الحياة العقلية والأدبية في الشعر العباسي

الأستاذ الدكتور حامد أشرف همداني

رئيس قسم اللغة العربية، جامعه پنجاب، لاہور

Abstract:

The Abbasid period is unanimously considered to be a golden era in the history of Arabic literature. In this period, Arabic literature with its different forms of prose and various genres of verse was in full bloom. This article deals with different phenomena of rational as well as literary life of the Arabs, in the light of poetry composed in Abbasid period. The mutual confrontation of the Allavid and the Abbasid, tribal and national dispositions and tendencies, literary discussions of poets, battles, translations, influence of other culture, pedagogic poetry, innovation in meter and rhyme are the topics of import which can rightly be called basic components of rational and literary life of the Abbasid period.

Keywords: الدولة العباسية، بغداد، المأمون، في العصر العباسي.

عاشت الدولة العباسية ما يقرب من خمسة قرون، فقد قامت سنة ١٣٢للهجرة. وقضى عليها المغول حين سقطت بغداد عاصمة الخلافة سنة ٦٥٦ للهجرة، وكان لهذا العمر الطويل تأثير في تنوع الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية خلاله.

وقد اتفق معظم مؤرخي الأدب على تقسيم حكم الخلافة العباسية إلى فترتين زمنيتين وعصرين أدبيين: اصطلح على تسمية الأول: العصر العباسي الأول و يبدأ من قيام الخلافة إلى عهد المأمون (توفي سنة ٢١٨هـ) والثاني: العصر العباسي الثاني، ويبدأ بخلافة المعتصم بالله سنة ٢٣٢هـ إلى سقوط الخلافة سنة ٦٥٦للهجرة. وكان الدافع إلى هذا التقسيم اختلاف ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية في العصر الأول عنها في العصر الثاني.

و يرى بعض مؤرخي الأدب أن العصر الثاني يمثل مرحلتين متميزتين: الأولى حين كانت السلطة مركزة في يد الخلفاء، والثانية حين ضعفت هذه السلطة، وانتزعها حكام الأقاليم والولايات المستقلة استقلالاً ذاتياً أو حقيقياً، و ظهر ذلك واضحاً من منتصف القرن الرابع الهجري، وإن بدأت حركات الاستقلال قبل ذلك بفترة قرن من الزمان۔(١)

ويبرر المؤرخون هذا التقسيم بتأكيد اختلاف ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية في الفترة الأولى عنها في الفترة الثانية أيضاً. (٢)

اتسمت الحياة في ظل الدولة الأموية بالميل إلى البداوة، وغلبة الطابع العربي بشكل عام. وكانت الثقافة فيها تمضي في كنف الدين وما يتصل به من العلوم الدينية.

أما في العصر العباسي فقد أصاب الحياة تغير كبير في كل نواحيها، وكان أبهم مظاهره ظهور العنصر الفارسي ثم التركي، و نهضة الثقافة بسبب الاتصال العلمي بالأمم الأخرى، وتلون الحياة الاجتماعية العباسية باللون الحضاري المترف. والشعر الحق هو الذي يكون صدى لما حوله، فكان لابد من أن تبرز في الشعر العباسي سمات تدل على أنه احتفظ بميزات من ماضيه ، وأضاف إليه جديداً من حاضره، ولكي نقدم صورة مقاربة له ينبغي أن نذكر ما يأتي: نهضة الشعر و أسبابها

بلغ الشعر العربي في هذا العصر درجة عظيمة من الرقي والازدهار، ومن أسباب هذه النهضة:

١- تقدير الخلفاء للشعر والشعراء.

٢- الامتزاج القوي بين أبناء الأمة و ظهور جيل جديد يتميز بصفات عقلية جديدة،ولاعجب أن نرى بعض شعراء هذا العصر ممن كانوا ينتمون إلى عنصر غير عربي.

٣- الرقي الحضاري الذي عاشت الدولة في ظله، و تمتع فيه الشعراء بجمال الطبيعة ومباهج الحياة، وما أبدعته يد الصنعة من القصور والحدائق.

٤- الثقافة الواسعة عن طريق التأليف والترجمة و عن طريق مجالس العلم والأدب. كل ذلك كان له أثره الواضح في أغراض الشعر و معانيه و أخيلته، وفي ألفاظه، و أوزانه. (٣)

وإن الشعراء المشاهير الذين تولوا قيادة الشعر في هذا العصر اهتموا اهتماماً عظيماً بتصوير الحياة العقلية والوجدانية التي شملت ذلك العصر ولم يقفوا عند جمال الصياغة وزخرفة الألفاظ والتعابير، بل اشتركوا في الأزمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية في الحدود التي سمحت بها ظروف الشعراء الفنية والشكلية من وزن وقافية وغير ذلك، وسننظر هنا كيف شغلوا بما كان يجري لعهدهم من الفتن السياسة والاجتماعية.

وسنتناول فيمايلي أهم مظاهر الحياة العقلية والأدبية في الشعر العباسي ونجملها كالتالي:

١ـ الصراع السياسي بين العلويين والعباسيين

الغرض الجديد الذي برز في عصر بني أمية هو الشعر السياسي، وهو لون من الشعر فيه تعصب مذهبي يختلط فيه المدح والفخر والحماسة والهجاء والإقذاع. وكان الباعثعليه تعدد الأحزاب السياسية، واتخاذ كل حزب منها شعراء يدعون له، وينشرون مبدأه ودعايته.

فالأخطل (المتوفى سنة ٩٥هـ) و جرير (المتوفى سنة ١١٤هـ) وغيرهما يدعون لبني أميّة. و أبرز شعراء العلويين الكميت بن زيد(المتوفى سنة ١٢٦هـ).ومن شعراء الزبيريين عبيدالله بن قيس الرقيات(المتوفى سنة ٧٥ هـ) . أما الخوارج فشعراؤهم كثيرون و منهم قطري بن الفجاء ة (المتوفى سنة ٧٨ هـ)، و عمران بن حطّان(المتوفى سنة ٨٤ هـ)، والطرمّاح بن حكيم(المتوفى سنة ١٠٠ هـ). (۴)

وظل الشعر السياسي يؤدي وظيفته في العهد العباسي، وإن لم يبلغ ما بلغه في العصر الأموي لأن أسبابه كانت آنذاك أقوى.

وقد انتقلت خصومة العلويين من الأمويين إلى العباسيين، فإن بؤلاء كانوا أقسى عليهم من الأمويين. وكان العلويون يرون أنهم أحق بالخلافة لأنهم أبناء الرسول ﷺ ، إذ أنهم أبناء فاطمة الزبراء - رضي الله عنها- فيرد عليهم دعاة العباسيين والمدافعون عنهم بأن قرابة العباس رضي الله عنه من النبي أقوى من قرابة عليرضي الله عنه ، وأن الأعمام أولى بالميراث من أبناء البنات. (۵)

ولقد كان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل، وظلوا يتحينون الفرص لإقامة دولتهم. وكان أول صدمة لقيها العباسيون من بؤلاء خروج محمد بن عبداللّه المعروف بالنفس الزكية على أبي جعفر المنصور ولكن بذا قضى عليه. ثم ظل العلويون يخرجون والعباسيون يقضون عليهم. (۶)

ولقد تركت هذه الأحداث المتتابعة أثراً واضحاً في الحياة الأدبية فمن ذلک نجد قوة الحزب الشيعي ممثلة في أشعار كثير منهم. يقول السيد إسماعيل بن محمد الحميري (١٠٥-١٧٣هـ)۔(۷)

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه هم أسباطه والأوصياء
فسبط سبط إيمان وحلم وسبط غيَّبَتْه كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

فمن يقرأ أبيات الحميري هذه وغيرها من أشعار الشيعة يدرک جيداً كيف كانت العصبية للشيعة قوية حادة في ذلک الوقت، وكيف تشبعت عقول بعض الشعراء بالمعاني البديعية في محاوراتهم العقلية حتى إن شتم علي بن أبي طالب فوق المنابر زمناً ما شكک أنصاره يوماً في وصيته ووصية أبنائه من بعده على الخلافة.

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن السيد الحميريكان أكثر شعراء القرن الثاني تمجيداً لعلي وبنيه، فقد أنفق حياته في نظم أخبارهم ومناقبهم، ويقول ابن المعتز(٢٤٩-٢٩٦هـ) إنه لم يترك فضيلة معروفة لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه إلا نقلها إلى الشعر، وقد كرَّر طويلاً ما تدَّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند غدير خمٍّ بين مكة والمدينة، وفيه يقول:

أقسم بالله وآلائه والمرءُ عما قال مسؤولُ

إن عليبن أبي طالبٍ على التُّقى والبرِّ مَجبُولُ

ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التي تسمى المذهبة، وقد عُني بها الشيعة وشرحوها مراراً. (٨)

وعلى هذا النهج سار دعبل الخزاعي (١٤٨-٢٥٣هـ) في مناصرته لآل البيت، إذ نراه يصور ما نزل بالعلويين من كوارث في كربلاء، باكياً قتلاهم واصفاً حرمانهم من حقهم في الخلافة في القصيدة التي مطلعها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

وفيها يقول:

ملامك في آل النبي فإنهم أحبا ي ما عاشوا وأهل ثقاتي

فيا رب زدني في يقيني بصيرة وزد حبهم يا رب في حسناتي

ألم تر أني من ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات

ولو لا الذي أرجوه في اليوم أوغد تقطع قلبي خلفهم حسرات

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله بالبركات

يميز فينا كل حق وباطل ويجزي عن النعماء والنقمات(٩)

وفي هذه القصيدة معلومات موٴسية عما لقيه العلويون من المحن والمصائب التي كانوا يتلقونها صابرين من خصومهم العباسيين الذين أصروا على إبادتهم من الوجود.

أما مروان بن أبي حفصة (١٠٥-١٨٢هـ) فهو شاعر العباسية ولسانهم السياسي استطاع أن ينظم الشعر دفاعاً عن النظرية العباسية في وراثة الخلافة ، إذ عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين في الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق، ولعل

شاعراً لم يبلغ في هذا الدفاع مبلغه، إذ كان يعرف كيف ينقض على العلويين بالحجة القاطعة على نحو ما نرى في قوله:

هل تطمسون من السماءِ نجومها بأَكُفِّكم أَو تسترون هلالها
أَو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالها
شهدت من "الأنفال" آخر آيةٍ بتراثهم فأَردتم إبطالها(١٠)

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شى ءٍ عليم﴾۔(١١)

يشير بذلك إلى حق العباسيين في وراثة الخلافة وأنهم مقدمون في هذا الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء رضي الله عنها إذ العم مقدم على الأسباط في الوراثة، على نحوما هو معروف في الشريعة الإسلامية.

ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التي يخاطب بها المهدي فيقول:

يا ابن الذي ورث النبي محمداً دون الأقارب من بني الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم قَطَع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام (١٢)

فهو يشير بذلك إلى حق العباسية في الخلافة، وهم مقدمون في زعمه على أبناء بنت الرسول إذ العم مقدم على السبط في الوراثة على نحوما هو مقرر في نظام الإرث.

ولقد ثبت لدى مؤرخي الأدب أن هذه القصيدة وقعت على العلويين موقع الصاعقة، فاضطربوا لها اضطراباً شديداً، واشتد سخطهم على مروان بن أبي حفصة وأضمروا له العداء وأظهروا له اللعنة، وما زالوا به حتى قتلوه (١٣).

ومن هنا يتضح أن مثل هذه الأشعار كانت ولا زالت توضح كثيراً مما غمض من تاريخ الأمة الإسلامية، فالشعراء ينتسبون إلى أحزاب يدافعون عنها تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفي من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم على الرغم من أنهم متهمون في مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه.

٢۔ النزعة الشعوبية

نادى الإسلام في قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، فلا عدناني ولا قحطاني ولا عربي ولا أعجمي، إنما

هى أمة واحدة يتساوى أفرادها في جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح، يقول جل شأنه: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (١٤)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(١٥)

وهذا بلا ريب مثل أعلى أراده الإسلام لأمته، غير أنا لا نصل إلى عصر علي بن أبي طالب رضي الله عنه وما نشب لعهده من حرب صفّين حتى نرى العصبيات القبلية تعود جَذعَةً بين القبائل، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة، بل لقد اضطرمت اضطراماً لم تهدأ ثائرة طوال عصر بني أمية. وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادَّة الدين في معاملة الموالي، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق، إلا ما كان من عمر بن عبدالعزيز، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة، فلم يُوَت عمله في هذا الجانب أي ثمرة.

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالي سبباً في اضطغانهم على العرب، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية، فشاركوا الخوارج والشيعة في الثورة عليها، والتفَّت منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة، وخاصة حين استولى على أزمَّة الحكم البرامكة في عهد الرشيد وبنو سهل في عهد المأمون.

وكان ضغط الأمويين على الموالي و احتقار الولاة وكثير من أفراد الأمة العربية لهم كان ذلک سبباً في نشأة حركة معادية للعرب تعرف في التاريخ باسم "الشعوبية" وهي نزعة ظهرت في أول الأمر تنادي بالتسوية بين العرب وغيرهم من الأمم، ولكن مالبثت أن تحولت إلى الحط من شأن العرب، والطعن في أخلاقهم وآدابهم، والتنويه بفضائل الفرس وغيرهم من الشعوب التي كانت لها حضارة قديمة وقد ألفت كتب أخرى في فضائل الفرس وغيرهم من الأمم غير العرب، وقد كان لهذه "الشعوبية" شأن في تاريخ الأدب العربي، كما كان لها شأن وأي شأن في السياسة العربية في العصر العباسي.

فإلى جانب الجدل العنيف الذي كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التي كانت تقوى وتشتد كلما أثيرت ذكرى الخلافة ـ ونراها ممثلة في فيض من

الآثار الفنية الشعرية في ذلك العهد. كانت تقوم فتنة أخرى هي الخلاف بين العرب والعجم، وانقسام الشعراء إلى فريقين، فريق يفضل العرب، وآخر يفضل العجم، وهي فتنة كانت بسبب أطماع الموالي وأنصار الفرس في دولة الخلافة، وظلت هذه الأطماع تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التي كان يبذلها الوزراء العباسيون لكبح النفوذ العربي راجين أن ينتقل إليهم النفوذ الأدبي والسياسي والمادي جميعاً.(١٦)

وأهم شاعر في العصر أوقد نيران هذه الخصومة الشعوبية وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد (٩٥-١٦٧هـ) وكان فيعصر بني أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس، حتى إذا حدث الانقلاب العباسي انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاء ه إلى الله ذي الجلال، يقول(١٧):

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العُرَيبِ فخُذ بفضلك فافخر

وقد مضى يشن حرباً عنيفة على العرب،ولبشار بن برد رائية في الفخر بفارسيته- تمثل بعضاً من تلك المناوشات التي كانت تحدث - يفضل فيها العجم على العرب بل على سائر الأمم، ويبرر فيها عبوديته التي جاء ت نتيجة الأسر، والأسر لا عيب فيه ولا يعيب عظماء الرجال، فكم من عظيم وقع في الأسر ولم ينقص ذلك من عظمته وكبريائه، فقد ينهزم العظيم ولكنه لا يضعف ولا يسقط، يقول بشار(١٨) .

سأخبر فاخر الأعراب عني وعنه حين بارز للفخار
أنا ابن الأكرمين أباً وأما تنازعني المرازب من طخار
أسرت وكم تقدم من أسير يزين وجهه عقد الأسار
ككعب أو كبسطام بن قيس أصيبا ثم دنسا بعار
فكيف ينالني مالم ينلهم أعد نظراً فإن الحق عاري
إذا انقلب الزمان علا بعبد وسفّل بالبطاريق الكبار

ويقول مهاجماً العرب:

أحين لبست بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
ونلت الشبارق والقلايا وأعطيت البنفسج في الخمار
تفاخر يا ابن راعية وراع بني الأحرار حسبك من خسار (١٩)

ويسير بشار على هذا النمط إلى أن يختم قصيدته مؤكداً شعوبيته محاولاً أن يطلق على خصومه سهامه المسمومة من خلال الموازنة التي عقدها بين خشونة البدو وحضارة الفرس.

ويأتي أبو نواس (١٤٥-١٩٩هـ) من بعده ليسير في نفس الطريق إلا أن انغماس أبي نواس في الملذات الحاضرة وتأثره بالمجون القائم في ذلك العصر جعل موازنته تقوم على الموازنة بين خشونة البدو الأعراب وبين المجون السائد في المجتمع محاولاً بذلك تغطية نزعته الشعوبية يقول(٢٠):

عاج الشقيّ على رسم يسائله ورحت أسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درّك قل لي من بنو أسد
كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين باك على نُوْيٍ ومنتضد
دع ذا، عدمتك، واشربها معتّقة صفراء تفرق بين الروح والجسد

وكان الخريمي (أبو يعقوب إسحق بن حسان، المتوفى سنة ٢١٤هـ) الشاعر المشهور يكثر في شعره من الاعتزاز بالنسب الفارسي والتحقير من شأن العرب فيقول:

إني امروٌ من سراة الصغد ألبسني عِرقُ الأعاجم، جِلداً طيبَ الخبر(٢١)

ويقول:

ونوديت مروٍ وبلخٍ فوارساً لهم حسب في الأكرمين حَسِيبُ
فياحسرتا لا دارُ قومي قريبة فيكثر منهم ناصري ويطيب
وإن أبي ساسانُ كسرى بنُ هُرمُزٍ وخاقانُ لي لو تعلمين نسيبُ
ملكنا رقاب الناسِ في الشرك، كلُّهم لنا تابع طوع القياد جنيبُ
نسومُكمو خسفاً،ونقضي عليكمو بما شاء منا مخطىء ومصيبُ
فلما أتى الإسلام وانشرحت له صدور به نحو الأنام تُنِيبُ
تبعنا رسول الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تصُوبُ(٢٢)

على أن أبا يعقوب إسحق بن حسان الخريمي يسلك في بعض شعوبياته مسلك من يحاجج بالدين وأنه لا فخر إلا فوقه الدين والعقل، وأن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى مخاطباً جُمل ويقصد بها العربية وأهلها، يقول(٢٣).

أبا الصغد بأس إذ تعيرني جُمل سفاهاً ومن أخلاقِ جارتي الجهلُ
فإن تفخري يا جُملُ، أو تتجمَّلي فلا فخرَ إلا فوقه الدين والعقلُ

أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى لقبرٍ على قبر عَلَاء ولا فضل
وما ضرَّني أن لم تلدني يُحابر ولم تشتمل جَرم علي ولا عُكل
إذا أنت لم تحمِ القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبلُ(٢٤)

ويقول المتوكلي وكان من ندماء المتوكل:

أنا ابن الأكارم من نسلِ جمّ(٢٥) وحائز إرث ملوك العجم
ومحيي الذي بادَ من عزّهم، وعَفَّى عليه طِوال القِدَم
وطالبُ أوتارهم جَهرةً، فمن نام عن حقهم لم أنم
معي علمُ الكابيان (٢٦) الذي به أرتجي أن أسود الأمم
فقل لبني هاشم أجمعين، هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوةً بالرما ح طعناً وضرباً بسيف حذِم
وأولاكُم المُلكَ آباؤنا، فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضِّباب، ورعي الغنم
فإني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام، وحرف القلم(٢٧)

والذي يهمنا في مثل هذه الأشعار إنما هو تقرير ما تمثله في ذلك العهد من الشقاق الذي كان يثور بين العرب والفرس من حين إلى حين، وذلك الخلاف له قيمته الحيوية التي كان يحسها رجال الأدب لذلك العهد، فقد كانوا يمثلون طوائفهم وأممهم بذلك الدفاع الذي كان يفيض حياة وقوة، وكان يحتوي أحياناً على مباحث جيدة في سياق الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التي تتصف بها الأمم والشعوب ومما يتصل بسلوك الناس، ويظهر أنهم كانوا يميلون إلى الصراحة المطلقة في كل شيء وبخاصة فيما يتعلق بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرضى والإشارة وإنما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الأشعار في تهادي الخمر ووصف مجالس الشراب واللهو وصفاً مغرياً لا يترك مفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجمال الحسي في الغلمان فوصفوه وصفاً جارحاً مما لا يستساغ اليوم عندنا، ومن أئمة هذا المنزع أبو نواس والقراطيسي وأبو العتاهية (١٣٠-٢١٨هـ) وزُر زُر الرفاء وغيرهم كثير، وكتب الأدب مملوء ة بهذه الأشعار من أمثال كتاب الأغاني وطبقات الشعراء لابن المعتز ويتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي وغيرها.

والذييقرأ هذه الكتب لا يقروٴها بدون أن يدهش من حب أولئک الشعراء لتصويرلذات الحياة، وأنهم لم يكونوا في الأغلب رجال حشمة ووقار، وإنما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون.

٣۔ الخصومات الفنية بين الشعراء

ومن أهم الجوانب التي تمثل الحياة العقلية في ذلک العصر الخصومات الفنية التي قامت بين الشعراء، وذلک التهاجي الذي كان يحدث بينهم. وهو ناشی ء من أطماعهم المادية فكانوا يتنافسون أمام القادة والأمراء طمعاً في التفوق الذي كان محل الحظوة عند الحكام والروٴساء.

من ذلک ما حدث بين بشار بن برد وبين عقبة بن روٴبة بن العجاج حيث دخل بشار على مجلس عقبة بن سلم الهنائي، فوجد ابن روٴبة ينشد أرجوزة على مسمع ابن سلم الهنائي فأظهر إعجابه بها. فقال له عقبة بن روٴبة: يا أبا بصير هذا طراز لا يحسنه أنت ولا نظر اوٴک من الشعراء. فغضب بشار وقال له: ألمثلي يقال هذا؟ والله إني لأشعر منک ومن أبيک ومن جدک، وذهب إلى بيته مغاضباً، وفي الصباح غدا على عقبة بن سلم الهنائي بأرجوزة يقول فيها(٢٨):

يا طلل الدار بذات الصمد بالله خبّر كيف كنت بعدي

وفيها يقول:

الحرّ يُلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

وصاحب كالدُّمل الممد حملته في رقعة في جلدي

فأعجب به عقبة بن سلم، وقال لا بن روٴبة: والله ما قلت أنت ولا أبوک ولا جدک مثل هذا، ووصل بشاراً وأجزل له في العطية وكان أصحاب الملک والرياسة يتنافسون في تقريب الأدباء والشعراء فهم يمثلون في نظرهم الجانب الدعائي، وعن طريقهم يحصلون على الدعاية والشهرة إذكانوا يدافعون عنهم أحياناً كما تفعل الصحف اليوم في تأكيد السياسات المختلفة، وإبراز الشعارات التي تتبناها الأحزاب والمنظمات والفئات المتباينة.

وها هو أبو تمام (المتوفى سنة ٢٢٨هـ) يقوم بهجاء دعبل الخزاعي بطلب من أبي نُضير بن حميد الطوسي. ومفاد القصة أن أبا نُضير قصّر في ترضية دعبل الخزاعي عندما مدحه دعبل بقصيدة. فقام دعبل بهجائه حيث يقول(٢٩):

أبا نُضير تخلخل من مجالسنا فإن فيک لمن جاراک منتقصاً

أنت الحمار حروناً إن وقعت به وإن قصدت إلى مربوعه قمصا
إني هززتک لا آلوک مجتهداً لوكنت سيفاً ولكنني هززت عصا

فوقعت هذه الأبيات من ابن حميد موقعاً سيئاً، فشكاه إلى أبي تمام فرد عليه أبو تمام يهجوه قائلاً:

أدعبل إن تطاولت الليالي عليک فإن شعري سم ساعه
وما وفد المشيب عليک إلا بأخلاق الدناء ة والرقاعه
ووجهک إن رضيت به قديماً فأنت نسيج وحدک في الوضاعه
ولو بدلته وجهاً بوجهي لما صليت يوماً في جماعه
ولكن قد رزقت به سلاحاً لو استعصيت ما أديت طاعه
مَنَاسِب طي ء قسمت فَدَعها فليست مثل نسبتک المشاعه
وَرَوّح منكبيک فقد أعيدا حطاماً من زحامک في خزاعه(٣٠)

وفي البيت الأخير صورة حركية جميلة يصوره فيها مزاحماً آل خزاعة محاولاً حصول شرف بنسبته إليهم ولكنه يطلب منه أن يريح منكبيه من هذا الزحام الشديد، فهو يطلب شيئاً ليس من أهله فالأولى به أن يريح ويستريح .

وتظهر روح المنافسة عند دعبل الخزاعي والحسد الذي كان يغيض قلبه عن أبي تمام وذلک فيما رواه عون بن محمد، حيث قال شهدته عند الحسن بن رجاء وهو يضع من أبي تمام فاعترضته عصابة الجرجاني، وقال اسمع مني ما قاله أبو تمام فإن أنت رضيته فذاک وإلا وافقتک على ما تذمه منه وأنشد قوله (٣١):

أما أنه لو لا الخليط المودّع ومغنىً عفا منه مصيف ومربع
هو السيل إن واجهته انفذت لوعة وتفتاده من جانبيه فيتبع
ولم أرنفعاً عند من ليس ضائراً ولم أرضراً عند من ليس ينفع
معاد الورى بعد الممات وسيبه معاد لنا قبل الممات ومرجع

فلما وصل عصابة الجرجاني إلى هذا البيت قال له دعبل لم ندفع فضل هذا الرجل، ولكنكم ترفعونه فوق قدره، وتقدمونه على من يتقدمه، وتنسبون إليه ما قد سرقه، فقال له عصابة: إحسانه صيرک له عاتباً، وعليه عائباً(٣٢):

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاء هم ليقة الاستخفاف والتهوين والتحقير، وقد استمد منها حماد عجرد (المتوفى سنة ١٦١هـ)كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله(٣٣):

وأعمى يشبه القرد إذا ما عَمي القرد
دَني لم يرح يوماً إلى مجدٍ ولم يغد
ولم يحضر مع الحضّا ر في خيرٍ ولم يبدُ
ولم يُخش له، ذَمّ ولم يُرجَ له حَمدُ

ويقال إن بشاراً حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه، فقال له قائل أ تبكي من هجاء حماد؟ فقال: والله ما أبكي من هجائه، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه، فيصفني ولاأصفه. وأتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطر، فوصفه بالقذارةوالدنس في أبيات لعلها كانت أشد إيلاماً وأوجع وخزاً لنفسه من الأبيات السابقة، إذيقول(٣٤):

نهارُهُ أخبثُ من ليلهِ ويومُه أَخبث من أمسهِ
وليس بالمقلع من غيَّه حتى يوارَى في ثَرَى رَمسِهِ
ماخلق الله شبيهاً له من جنّه طُرًّا ومن إنسهِ
والله ما الخنزير في نَتنِهِ بِرُبعه في النَّتنِ أَو خُمسهِ
بل ريحه أَطيب من ريحِه ومَسُّه أَلينُ من مَسِّهِ
ووَجهُه أَحسن من وجهه ونفسه أَنبلُ من نفسهِ
وعودُه أَكرمُ من عودِه وجِنسُهُ أَكرمُ من جِنسِهِ

يقول الجاحظ (١٦٣ ٢٥٥هـ): "وأنا - حفظك الله تعالى - أستظرف وضعه الخنزير بهذا المكان في هذا الموضع حين يقول: (وعوده أكرم من عوده) وأي عود للخنزير قبَّحه الله تعالى وقبَّح من يشتهي أكله". (٣٥)

يقول الدكتور شوقي ضيف: "فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمت فيه روح جديدة، إذ أخذوا يريشونه سهاماً مصمية. ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحوما هو مشهور عن دعبل. وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية

المقابلة للمديح، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد. وقد تبارى الشعراء في رسم معانيه، تارة يَخِزون وخزالإبر، وتارة يطعنون طعنات قاتلة". (٣٦)

٤۔ نشاط الترجمة والتأثر بالثقافات الأخرى

ومن أهم الجوانب التي تمثل الحياة العقلية نشاط الترجمة في ذلک العصر حيث اتسعت قراءات الشعراء حتى شملت جميع الثقافات المعروفة حين ذاک من عربية وإسلامية وأجنبية كالهندية والفارسية واليونانية، واستطاع القراء أن ينهلوا من هذه العلوم دون أن يحجبها عنهم أحد: فحلقات المساجد تزدحم بالطلاب ودكاكين الوراقين تعرض كل ما يطلبه القراء من مختلف فروع المعرفة، ولكل شخص حريته في اختيار ما يريد من هذه العلوم والمعارف. وكان لهذا النشاط العلمي أثر في امتزاج الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الوافدة فانمحت الأبعاد والفوارق بين الفكر العربي الخالص والفكر الأجنبي وظهرت بوادر الاختلاط في تتابع الشعراء، فأخذوا يمثلون حِكم الفرس ووصاياهم. يقول أبونواس (٣٧):

كنت من الحب في ذرى نِيق أرود منه مَرَاد موموق
حتى ثناني عنه تخلق وا شٍ كذبة لفّها بتزويق
جبت قفا ما نمته معتذراً منه وقد فزت بعد تخريق
كقول كسرى فيما تمثله من فُرص اللص ضجّة السوق

فأبو نواس في البيت الأخير يظهر عليه انتفاعه ببعض حِكم وأمثال الفرس وذلک فيما يشير إليه من أن ضجة السوق تتيح الفرصة للسارق أن يسرق وذلک نظراً لانشغال الناس بالزحام والضجيج المتعالي من أصوات الناس فلا يفطن إليه أحد خلال هذا الظرف.

وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع(١٤٢١٠٦هـ) يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس وحِكمهم ووصاياهم في الصداقة والمشورة وآداب السلوک والسياسة، ومن يرجع إلى بشار يجده يفرد للمشورة قطعة طويلة في إحدى مدائحه، يقول فيها:

إذا بلغ الرَّأيُ المشورةَ فا ستعن برأي نصيحٍ أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليک غضاضةً مكان الخوافي نافع للقوادم(٣٨)

وقد نقلت أمثال بزرجمهر الوزير الفارسي إلى العربية ودارت في كتب الأدب، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة، من مثل قوله: "'إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى" وقدأخذه بعض الشعرا وزاد عليه قائلاً(۳۹):

فأنفق إذا أنفقت إن كنت موسراً وأنفق على ما خَيّلت حين تُعسر
فلا الجود يُفني المال والجَد مقبل ولا البخل يُبقي المال والجدُّ مُدبر

ويقال إنه كان في ديوان صالح بن عبدالقدوس ألف مثل للعجم(۴۰)

والثقافة الأخرى التي تأثر بها الشعر العباسي هي الثقافة الهندية فقد لاحظ ابن قتيبة(۲۱۳ـ۲۷۶م) أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها في أشعاره، من ذلک قوله في الخمر:

تُخُيِّرت والنجوم وُقفٌ لم يتمكَّن بها المدارُ

يقول ابن قتيبة: "يريد أن الخمر تُخيرت حين خلق الله الفلک، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفةً في برج ثم سيَّرها من هناک، وأنها لا تزال جاريةً حتى تجتمع في ذلک البرج الذي ابتدأهافيه، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم، والهند تقول إنها في زمان نوح اجتمعت في الحوت إلا يسيراً منها، فهلک الخلق بالطوفان، وبقي منهم بقدر ما بقى منها خارج الحوت"(۴۱)

وينشد ابن قتيبة قول أبي نواس في بعض المغنين ماجياً:

قل لزمیرٍ إذا حدا رشدا أقلل أَو أكثر فأَنت مهذارُ
سخُنتَ من شدة البرودة حَتَّى صرت عندي كأَنک النارُ
لا يعجب السامعون من صفتي كذلک الثلج باردٌ حارُ

ويعلق بقوله: "هذا الشعر يدل على نظر أبي نواس في علم الطبائع، لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً موٴذياً، ووجدت في بعض كتبهم: لا ينبغي للعاقل أن يغتَّر باحتمال السلطان وإمساكه، فإنه إما شَرِس الطبع بمنزلة الحي إن وُطئت فلم تلسع لم يُغتر بها فيُعاد لوطئها، أو سميح الطبع بمنزلة الصندل الأبيض البارد إن أفرط في حكّه عاد حاراً موٴذياً۔(۴۲) وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه الفرس عن الهندية، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية . (۴۳)

وكما اتصل العرب بالفرس والهنود اتصلوا كذلک باليونانيين اتصالاً ثقافياً، وأول ذلک أن أحد أباطرة اليونان طرد في أوائل القرن السادس الميلادي جماعة من العلماء فنزحوا إلى المشرق، واتخذوا من بعض المدن ميداناً لنشاطهم العلمي، فاتصل بهم الفرس، وترجموا إلى لغتهم بعض معارف هوٴلاء، وعرفهم العرب واتخذوا منهم أطباء ومترجمين، وعن هذين

الطريقين اتصل الأدب العربي بالثقافة اليونانية، وهي ثقافة تشمل الطب والرياضة وعلوم الطبيعة والمنطق والفلسفة.

وقدترجم في العصر العباسي الأول أكثر هذه الفنون، وأفاد العرب منها، وأثرت في عقولهم وفي آدابهم فظهرت في الأدب الأقيسة المنطقية والمعاني الفلسفية، بل وبعض الألفاظ الفلسفية كالجوهر والعرض، وتأثر النقد العربي في حقبة من هذا العصر تأثراً قوياً بكتب أرسطو، كما تأثر التقعيد في العلوم العربية بالمنطق اليوناني. ويبالغ بعض الباحثين المحدثين من العرب فيرجع إلى اليونان أكثر أصول النحو العربي والبلاغة والنقد. (۴۴)

ولاريب في أن الثقافة اليونانية كانت تأثيرها في الشعروالشعراء أعمق وأبعد غوراً، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفي وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلته، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعاني واستخراج دقائقها. وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة، بل كان منهم من ألف في المنطق(۴۵)، حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله. وكان مما تُرجم لهم من تلك الثقافة مراثي فلاسفة اليونان للإسكندر المقدوني عند وفاته، وقد نقل منها أبوالعتاهية أطرافاً إلى مراثيه(۴۶) في صديقه علي بن ثابت، من ذلك أن أحدهم وقف عند رأسه، وقال: سكنت حركة الملك في لذاَّته وقد حرَّكنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً:

يا عليّ بن ثابت بان منِّي صاحب جلَّ فقدُهُ يوم بِنتَا
قد لعمري حكيت لي غُصص المو ت وحرَّكتني لها وسكَنْتا

وقال فيلسوف آخر: "الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس". فتمثله أبو العتاهية في مرثية أخرى لصديقه على هذا النمط:

بكيتك يا عليُّ بدمع عيني فما أغنى البكاءُ عليك شَيًّا
كفى حزناً بدفنك ثم أني نفضت تراب قبرك عن يديًّا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حَيًّا(۴۷)

فهذه بعض الشواهد وقد تعرض لهذا الموضوع بإسهاب شوقي ضيف في كتابه "تاريخ الأدب العربي" العصر العباسي الأول (۴۸) حيث بين أن هوٴلاء الشعراء كانوا متأثرين تأثراً عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في نفوسهم وعقولهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تحصى، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورقة الشعور.

٥۔ الشعر التعليمي

وبذا الغرض جديد في العربية ، وقد دعا إليه الرغبة في استظهار العلوم، وسهولة تعليمها للناشئين. ومن أوائل ما يلقانا من ذلک تحدث صفوان الأنصاري في أشعاره عن فضل الأرض وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة(٤٩) ولا ريب في أن أبان بن عبدالحميد (المتوفى سنة ٢٠٠هـ)هوالذي عمل على إشاعة هذا الفن الشعري الجديد، فقد نظم فيه تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيراً، فأما التاريخ فنظم فيه سيرتي أردشير وأنوشروان، وأما الفقه فنظم فيه الأحكام المتعلقه ببابي الصوم والزكاة، وصنع قصيدة في مبدأ الخلق وضمنها شيئاً من المنطق، وأهم من ذلک كله أنه نظم في القصص كتاب كليلة ودمنة في أربعة عشر ألف بيت. وفي كتاب الأوراق للصولي قطعة كبيرة من منظومته الفقهية وقطع أخرى من نظمه لكليلة ودمنة، ونراه يستهلها بقوله(٥٠):

هذا كتابُ أدبٍ ومِحنَه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه دلا لات وفيه رشدُ وهو كتاب وضعته الهندُ
فوصفوا آداب كلِّ عالمِ حكايةً عن ألسُن البهائم
فالحكماءُ يعرفون فضلهُ والسخفاءُ يشتهون هزلهُ
وهو على ذاک يسيرُ الحفظِ لذّ على اللسان عند اللَّفظ

ويتأثره ابنه حمدان في هذا الضرب من الشعر التعليمي فينظم مزدوجة طويلة مسرفة في الطول يصف فيها الحب وأمله وطبيعته وصوره المختلفة. وعلى قبسٍ من عمل أبان ينظم أبو العتاهية مزدوجته التي سماها "ذات الأمثال" وهي كما يتضح من اسمها حِكم وأمثال، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت. وقد أنشد أبو الفرج في ترجمته قطعة منها، ومن قوله في تضاعيفها(٥١):

حسبُک مما تبتغيه القوتُ ما أكثر القوت لمن يموتُ
لكل ما يؤذي - وإن قلَّ - ألَم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله وخيرُ ذخر المرءِ حسنُ فعلهِ
إن الفساد ضدُّه الصلاحُ وربَّ جِدٍّ جرَّه المُزَاحُ

وقد أُعجب أبو عثمان الجاحظ ببيت فيها وهو:

يا للشَّباب المرحِ التصابي روائح الجنة في الشبابِ

وكان يقول "إن له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل، وإدامة التكفير، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه"(٥٢)

وظل هذا الفن قائماً حتى أتى علي ابن الجهم(٢٤٩١٩٠هـ) فعني بنظم مزدوجة في التاريخ تقع في أكثر من ثلثمائة بيت، جعلها في جزء ين: جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء، وربما تأثر في الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتي قال الرواة عنها إنها كانت في بدء الخلق، أما الجزء الثاني وهو الخاص بتاريخ الخلفاء، فيعد سابقاً فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا في نظم هذا التاريخ، ونراه حريصاً في مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول، وقد بدأ بقصة خلق آدم:

يا سائلي عن ابتداء الخلق مسألةَ القاصد قصد الحقَّ
أخبرني قوم من الثقات أولو علوم وأولو هيئات
تفرّغوا في طلب الآثارِ وعرفوا موارد الأَخبارِ
ودرسوا التوراة والإنجيلا وأحكموا التأويل والتنزيلا
أن الذي يفعل ما يشاءُ ومن له القدرة والبقاءُ
أنشأَ خلق آدمٍ إنشاءَ وقدَّ منه زوجه حوَّاءَ(٥٣)

وممن نظم في بذا الفن عبدالله بن المعتز، وله أرجوزتان، إحداهما في التاريخ وقد جعل محورها تاريخ "المعتضد بالله" وقد تعرض فيها لما كان قبل المعتضد من فتن، ومن فساد الحياة السياسية، والاجتماعية. ويمضي فيصف حال الناس ، والتجار، والسادة، وما أصابهم من تسلط من أبناء الأتراك على الحكم، حتى يأتي إلى المعتضد فيصف ما كان من جهاده لأصحاب الفتن. والثانية في ذم الصبوح ، وفيها يصور جمال البساتين والرياض تصويراً بديعاً ثم يذكر الأسباب التي من أجلها يكره الاصطباح، وهو شرب الخمر في الصباح. (٥٤)

ثم أتى ابن دريد(٣٢١٢٢٣هـ) وكان عالماً لغوياً كبيراً، ينظم الشعر ويحسنه، وله ديوان مطبوع، وقد عني بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف، وأشهر ماله في هذا الباب مقصورته (٥٥) التي مدح بها عبدالله بن محمد بن ميكال والي الأهواز وابنه إسماعيل، وقد

بنى قافيتها على الحرف المقصور وجعلها في نحو مائتين وخمسين بيتاً، ويقال إنه ضمنَّها ثلث المقصور في اللغة۔(۵۶)

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية، من ذلک قصيدته في المقصور والممدود(۵۷)، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها، وقد بدأها بما يُفتح أوله فيُقصر ويُمد والمعنى مختلف من مثل قوله:

لا تركننَّ إلى الهوى واحذر مفارقة الهواء
يوماً تسير إلى الثَّرَى ويفوز غيرک بالثراءِ

وفي ديوانه قصيدة ملأها بالغريب، نظمها تحدياً لبعض علماء اللغة مورداً عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة(۵۸)، وهي لذلک تضم إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين، فغايتها هي الأخرى علمية أو تعليمية واضحة. وأيضاً في الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات(۵۹) أودع في أولاها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يوٴنث، وفي ثانيتها ما يوٴنث ولا يذكر، وفي ثالثتها ما يجوزفيه التذكير والتأنيث. وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية. (۶۰)

ثم تتابع الشعراء بعد ذلک ينظمون في بذين الغرضين (القصص والعلوم) حتى نظموا في العصور المتأخرة الجغرافيا والحساب. ولعل في كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلي والفني للشاعر العباسي وكيف كان يحرص على التجديد، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده، ولا يكتفي بها، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمي، وسجل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة.

۶۔ التجديد في الأوزان والقوافي

في العصر العباسي كثرت أشكال القريض، فبالإضافة إلى القصيدة العمودية المتحدة في الوزن والقافية، ظهرت المزدوجات، مثل قصيدة أبي العتاهية ذات الأمثال، وكمزدوجة ابن وكيع التنيسي، وهي التي يصف فيها فصول السنة، ومنها قوله في الصيف:

اَمَّا المَصِيفُ فاستَمِع مَافِيهِ مِن فَطِنٍ يُفهِمُ سَامِعِيهِ
فَصل مِنَ الدَّمرِ إذا قِيلَ حَضَر أذكَرَنا بحرِّهِ نارسقر(۶۱)

فكل بيت معقود بقافية واحدة في الشطر الأول والثاني، وهي تختلف عن قافية البيت الثاني، والثالث يختلف عنهما، وهكذا، فهو تنوع موسيقي. وفي هذا العصر وضع الشعراء "الدوبيت" وهو بيتان لهما قافية واحدة، كقول ابن الفارض(٥٦٧-٦٣٢هـ):

إن جُزتَ بِحَيٍّ لِي على الأَبرقِ حَيّ وأبلِغ خبري فإنَّني أُحسبُ حَيّ

قُل مات مُعنَّاكم غَراماً وجوًى في الحب وما اعتاض عن الروح بشيء(٦٢)

ثم نشأت المخمسات والمسدسات والمسبعات والمثمنات، وهي قصائد ترتبط في ما بينها بقافية واحدة، ثم يأتي بيت من الوزن نفسه ولكن بقافية مختلفة تتفق مع مثيله، وتسمى المسمطات.

وإنما سمي هذا النوع مسمطاً من السمط وهو قلادة تنظم فيها عدة سلوك تجتمع عند لوٴلوٴة أوجوهرة كبيرة، وكذلك كل دور في المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر الأخير۔(٦٣) ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبي نواس تتوالى على هذا النمط(٦٤):

سلاف دنٍّ

كشمس دجن
كدمع جفن

كخمر عدنٍ
طبيخ شمسِ

كلون ورس
ربيب فُرسِ

حليف سجنٍ
يا من لحاني

على زماني
اللهو شاني

فلا تلمني

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة. وكان شيوع المسمطات الخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة، واشتهر بشار بنظمه لبعض المخمسات(٦٥)، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع المخمسات من بشر بن المعتمر(٦٦)، وقد أنشد الدميري لأبي نواس مخمساً ختمه بهذا الدور(٦٧):

يا ليلةً قضيتها حلوه

مرتشفاً من ريقها قهوه
تسكر من قد يبتغي سكره

ظننتها من طيبها لحظه
يا ليت لا كان لها آخر

وكان هذا التنوع الموسيقي هو الممهد لظهور فن الموشح في الأندلس، ولذلك يُعد فن الموشحات امتداداً طبيعياً للإبداع الشعري عند العرب، وليس محاكاة لأغاني شعبية إسبانية، وقد شاعت المربعات والمخمسات في الأندلس قبل ظهور الموشح . ـ

ويلاحظ في هذه المنظومات الشعرية وجود الوحدة في الموسيقا من ناحية، ووجود التنوع فيها من ناحية أخرى . (٦٨)

الهوامش

١- مثل الدولة الطولونية في مصر والشام من ٢٥٤-٢٩٢هـ ، والدولة الإخشيدية في مصر والشام من ٣٢٣-٣٥٨هـ، والدولة الصفارية في خراسان من ٢٥٤-٢٩٠هـ، والدولة الغزنوية من ٣٥١-٣٩٢هـ، و دولة الأدارسة في المغرب الأقصى من ١٧٢-٣١١هـ، و دولة الأدارسة في تونس من ١٨٤-٢٩٦هـ، والخلافة الفاطمية في مصر من ٣٥٨-٥٦٧ هـ، و دولة الأندلس من ١٣٨ إلى سقوطها في ٨٩٦ هـ .

٢- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، ج٢، ص ص ٣٣-٣٤- و زيدان، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢،ص ص ٣١٦،٣١٧ - و الفاخوري، حنا : الموجز في الأدب العربي و تاريخه ، ج٢ ، ص ص ١٦-٢٣ .

٣-راجع للتفصيل:السباعي البيومي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ج٣ص ص٣٥١-٣٦٢ - ومحمود مصطفى : الأدب العربي و تاريخه في العصر العباسي ج٢ص ص٣٦٩-٣٧٤ .

٤-انظر: ضيف، شوقي :تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، ص ص ٢٩١-٣٤٦ .

٥- انظر: ضيف، شوقي :تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ص ٢٦-٢٧ .

٦-راجع للتفصيل: المرجع نفسه ص ٢٦-٣٢ .

٧-المرجع نفسه ص ٣١١ .

٨-المرجع نفسه ص ٣١٢ .

٩-ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٦٧ .

١٠-طه حسين: من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول (القرن الثاني) ص ٣٠٣- وشوقي ضيف: . تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ٣٠٠ .

۱۱۔سورةالأنفال، الآية: ۷۵ .

۱۲۔شوقي ضيف: .تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ۳۰۱ .

۱۳۔طه حسين: من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول (القرن الثاني) ص ۳۰۳ .

۱۴۔سورة الحجرات، الآية: ۱۲ .

۱۵۔أحمد بن حنبل، الإمام: المسند، ج ۵ ص ۴۱۱۔ والبيهقي: شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل في حفظ اللسان عن الفخر بالآباء ج ۴ ص ۲۸۹ .

۱۶۔هذا: وتاريخ الشعوبية وأثرها وأثر الموالي في الأدب والثقافة مستوفى بالجزء الأول من كتاب ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ۴۲-۷۵ .

۱۷۔الأصفهاني، أبوالفرج :الأغاني ج۳ ص۱۳۹ .

۱۸۔ديوان بشارج ۳ ص ۲۲۹ .

۱۹۔المصدر نفسه ج ۳ ص ۲۳۱ .

۲۰۔أبو نواس:الديوان ص ۲۶۶ .

۲۱۔ابن قتيبة :الشعر والشعراء ص ۵۱۸ .

۲۲۔أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ۱ ص ۵۲ .

۲۳۔ابن قتيبة :الشعر والشعراء ص ۵۲۱ .

۲۴۔يحابر، وجرم، وعكل: أسماء قبائل عربية .

۲۵۔يربد بجم: جمشيد ملک الفرس .

۲۶۔الكابيان: نسبة إلى كابه (جاوه) حداد فارسي رفع علم الثورة .

۲۷۔الحموي، ياقوت: معجم الأدباء ج ۱ ص ۳۲۳۔ وأحمد أمين : ضحى الإسلام ج۱ ص ص ۵۲۔۵۳

۲۸۔ابن المعتز:طبقات الشعراء ص ۲۵ .

۲۹۔الأصفهاني: الأغاني ج ۲۰ ص ص ۱۲۹-۱۳۰ .

۳۰۔المصدر نفسه، ج ۲۰ ص ۱۳۰ .

۳۱۔المصدر نفسه، ج ۱۶ ص ۳۹۳ .

۳۲۔المصدر نفسه،ج ۱۶ ص ۳۹۳ .

۳۳۔المصدر نفسه ج ۱۴ ص ۳۲۹ .

۳۴۔الجاحظ: الحيوان ج۱ ص۲۴۰۔ والأصفهاني:الأغاني ج ۱۴ ص۳۳۰ .

۳۵۔الجاحظ: الحيوان ج ۱ ص ۲۴۰ .

۳۶۔شوقي ضيف: .تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ۱۶۷ .

۳۷۔ابن قتيبة: عيون الأخبا رج ۲ ص ۲۲ .

۳۸۔الأصفهاني:الأغاني ج۳ ص۱۵۶ وانظر ص ۲۱۴، والقوادم: الريش الطويل في جناح الطائر، والخوافي: الريش القصير .

۳۹۔ابن قتيبة: عيون الأخبا رج ۳ ص ۱۷۹ .
۴۰۔شوقي ضيف:. تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ص ۱۴۹۔۱۵۰۔وأحمد أمين : ضحى الإسلام ج۱ ص ص ۱۳۳۔۱۳۴ .
۴۱۔الشعر والشعراء ص ۴۸۱ .
۴۲۔الشعر والشعراء ص ۴۸۳ .
۴۳۔شوقي ضيف:. تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ص ۱۴۸۔۱۴۹۔وأحمد أمين : ضحى الإسلام ج۱ ص ص ۱۷۲۔۱۷۳ .
۴۴۔راجع للتفصيل: أحمد أمين : ضحى الإسلام ج۱ ص ۱۷۴۔۱۹۳ .
۴۵۔الحموي، ياقوت: معجم الأدباء ج ۱۷ ص ۲۷ .
۴۶۔الأصفهاني: الأغاني ج ۴ ص ۴۴۔ والجاحظ:البيان والتبيين ج۱ ص ۳۰۷ .
۴۷۔المصدران السابقان و شوقي ضيف:. تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ص ۱۵۰۔۱۵۱ .
۴۸۔انظر شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ۱۴۷۔۱۵۹ .
۴۹۔الجاحظ:البيان والتبيين ج ۱ ص۲۷ وما بعدها .
۵۰۔شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ص۱۹۰-۱۹۱۔ وراجع الأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء) ص ۳۶ .
۵۱۔الأصفهاني: الأغاني ج ۴ ص ۳۹۔ وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ۱۹۱ .
۵۲۔الأصفهاني: الأغاني ج ۴ ص ۳۶۔ وشعبان محمد مرسي: الفنون الأدبية في العصر العباسي، ص ۲۰۳ .
۵۳۔ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص ۲۴۷ .
۵۴۔المرجع نفسه ص ص۲۴۹-۲۵۰ .
۵۵۔انظر المقصورة في الديوان، وهي مطبوعة بشرح الخطيب التبريزي في دمشق .
۵۶۔البغدادي: خزانة الأدب ج ۳ ص۱۰۵۔ و شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص ۲۵۱ .
۵۷۔ديوان ابن دريد ص ۲۹ .
۵۸۔الديوان ص ۸۸ .
۵۹۔الديوان ص ۱۲۳ وما بعدها .
۶۰۔شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص ص ۲۵۳-۲۵۴ .
۶۱۔الثعالبي:يتيمة الدهر، ج۱ ص۳۶۳۔۳۶۸۔ و النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج۱ ص۱۷۹۔۱۸۳ .
۶۲۔ديوان ابن الفارض، ص ۲۲۱ .
۶۳۔شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ص۱۹۸۔۱۹۹ .
۶۴۔الديوان ص ۳۴۶ .
۶۵۔القيرواني، ابن رشيق: العمدة ج۱ ص۱۲۰ .

۶۶۔شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ۱۹۹ .

۶۷۔الدميرى: حياة الحيوان الكبرى ج ۱ ص۹۶ .

۶۸۔شعبان محمد مرسي: الفنون الأدبية في العصر العباسي، ص ص ۲۴۵۔۲۴۶ .

المصادروالمراجع

(۱) القرآن الكريم .

(۲) ابن حنبل، أحمد . المسند . دار صادر، بيروت .

(۳) ابن دريد . الديوان . طبعة القاهرة .

(۴) ابن الفارض . الديوان . تحقيق د . حسين نصار، مصر .

(۵) ابن قتيبة، الدينوري .

۱۔ الشعر والشعراء . تحقيق: د . مفيد قمحة والأستاذ محمد أمين الغناوي . بيروت: دارالكتب العلمية، ۲۰۰۰م .

۲۔ عيون الأخبار: دار الكتب المصرية ۱۳۴۶ھ/۱۹۳۸م .

(۶) ابن المعتز . طبقات الشعراء . تحقيق عبدالستار أحمد فراج، الطبعة الرابعة، دار المعارف، بيروت .

(۷) أبونواس . الديوان . تحقيق: أحمد عبدالحميد الغزالي . بيروت: دارالكتاب العربي، ۱۹۸۴م .

(۸) الأصفهاني، أبوالفرج علي بن الحسين . الأغاني . الطبعة الأولى . دار إحياء التراث العربي، بيروت، ۱۴۲۱ھ/۲۰۰۰م .

(۹) أمين، أحمد . ضحى الإسلام . الطبعة الأولى،بيروت: دار الكتاب العربي، ۱۴۲۵ھ۔ ۲۰۰۵م .

(۱۰) بشار بن برد . الديوان . شرح محمد الطاهر بن عاشور، القاهرة، ۱۳۷۶ھ/۱۹۷۵م .

(۱۱) البيومي، السباعي . تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي . مصر: مكتبةالإنجلو المصرية، ۱۹۵۴م .

(۱۲) البيهقي، الإمام . شعب الإيمان . دار الكتب العلمية، بيروت، ۱۹۹۲م .

(۱۳) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .

۱۔ كتاب الحيوان . بيروت: مطبعة الحلبي، (بدون التاريخ) .

۲۔ البيان والتبيين . تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الخامسة، ۱۴۰۵ھ/۱۹۸۵م .

(۱۴) الحموي، ياقوت بن عبدالله . معجم الأدباء . تحقيق أحمد فريد رفاعي، الطبعة الأخيرة، بيروت .

(۱۵) الدميري، الإمام . حياة الحيوان الكبرى . طبعة بولاق، مصر .

(۱۶) زيدان، جرجي . تاريخ أداب اللغة العربية . بيروت: دار مكتبة الحياة، ۱۹۸۳م .

(۱۷) ضيف،شوقي . ۱ تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي . مصر: دار المعارف، ۱۹۶۳م . ۲، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول . مصر: دارالمعارف . ، ۳ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني . الطبعة السادسة، مصر: دارالمعارف .

(١٨) طه، حسين الدكتور. من تاريخ الأدب العربي. مصر: دارالكتب المصرية.
(١٩) الفاخوري، حنّا. الموجز في تاريخ الأدب العربي وتاريخه. الطبعة الثانية. بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
(٢٠) فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي(الأعصر العباسية) . بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.
(٢١) القيروانى، ابن رشيق. العمدة فى محاسن الشعروآدابه و نقده. الطبعة الثانية، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد. القاہرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٥م.
(٢٢) مرسي، شعبان محمد . الفنون الأدبية في العصر العباسي. الطبعة الثانية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، ١٤١٦ هـ /١٩٩٥م.
(٢٣) مصطفى، محمود. الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨م.
(٢٤) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب، القاهرة.
(٢٥) يتيمة الدهر في محاسن أهل المصر: أبو منصور عبدالملک بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.